سلسلة مقالات الأنبا ساويرس
البطريرك الأنطاكي

١٢

الميلاد

مليكه حبيب يوسف

يوسف حبيب

سلسلة مقالات الأنبا ساويرس
البطريرك الانطاكي

١٢

الميلاد

مقال القديس ساويرس عن الميلاد

مترجم من الكتاب من الجزء الثامن من مجموعة
Patrologie Orientolas R. Graffin - F. Nau Les Homélies Cathédrales de Sévère d' Antioche Homélie L X III

Publiée et traduite par Maurice Briére, Paris

يقرأ في عيد الميلاد أو في عيد الغطاس

مليكه حبيب يوسف

يوسف حبيب

« باسم الآب والابن والروح القدس اله واحد امين »

حضرة صاحب الغبطة أبينا المكرم الأنبا كيرلس السادس
بابا وبطريرك الكرازة المرقسية

مقدمة

مما لاشك فيه أن هذا المقال كان حديثاً أو خطبة وجهها ذلكم الخطيب المفوه القديس ساويرس البطريرك فى عيد الميلاد. وهو فيه كالبحر الزاخر وصوته كالرعد المدوى البعيد المدى فى شتى الأقطار تبرق خلاله أضواء المعانى فتخطف الأبصار ولها التأثير العجيب. ولاغرو فهو يليق باللآلىء عندما تهدر أمواجه. ترى مدى تأثير كلامه فيما قاله بشأن الاحتفالين السابقين وهو يغوص إلى العمق بحثاً عن اللآلىء يهديها إلى ابنائه..

وطريق التأثير بالخطاب إنما يكون بإبراز المعانى فى صورة تتميز بالوضوح والعمق معاً وبالدقة والبراعة فى العرض كما يؤثر فى سامعيه بشخصيته المتألقة وروحانيته الفائقة وعلمه الغزير.

وليس ذلك فحسب بل هو كرئيس كهنة لا يوجه الخطاب كمؤرخ أو قصصى بل كأب روحى وطبيب سماوى دفعت إليه أجل أسرار الرعاية وأعطى سلطان الخدمة ومفاتيح الحياة فضلا عن ذلك فهو منار الهداية الأعلى والراعى الأمثل.

وفى الكلمة المكتوبة الأمر يختلف فلا يصل إلى النقاط

البارزة من خلال السطور إلا القوى الملاحظة الحاد النظر، ويفيد فى ذلك التأمل واستلهام ذكرى شخصية ذلكم الخطيب الذى كان يطلب من صاحب الاحتفال كلمة حية، على حد قوله، فلزم لنبرز صور الحياة فى المقال وضع العناوين اللازمة لتنبيه القارىء إلى ما يأخذه من بين السطور، كما لحقنا التمهيد البارع الذى يستهل به القديس المقال بما يناسب القارىء.

وفى الترجمة توخينا أن نوصل المعانى الدقيقة التى قصد اليها المتحدث القديس، ولم نهدف إلى الزخرف اللفظى أو الصورة الخارجية حتى تتقابل فطنة القارىء وتأمله عند الهدف المنشود.

† † †

عرض مقدمة القديس ساويرس

عن المقال ٦٣

استهل القديس ساويرس المقال بمقدمة طويلة أبدى فيها - وهو البطريرك الراسخ والعلامة القديس والعبقرى اللامع الذى طبقت شهرته مشارق الأرض ومغاربها - تهيبه من الخوض فى الحديث عن جلال الأحداث التى وقعت عند ميلاد المسيح. يقول للشعب المؤمن فى ذلك الزمان:

لقد احتفلت مرتين بهذا العيد معكم ولم يكن بيانى قاصراً عن أن يمد المؤمنين بالغذاء الروحى بل كانت الكلمة غنية جداً من هذه الناحية. وتتوقعون بمشاعركم التقية كلمات وفيرة متواضعة تتناولونها بالتأمل فيمكنكم تحليلها فيما بينكم لكى ترفعوها إلى علو لائق بالله.

ثم انتقل إلى الكلام عن الكيفية التى تأتى بها الثمار. فكما أن الأرض الخصبة التى يعنى بزرعها تغل بعد البذار سنبلا مرتفعاً مليئاً هكذا الروح التى ترعاها القيادة الحسنة والمتدربة على الإيمان حسب الأرثوذكسية. ثم يحث القديس المؤمنين قائلا:

« ان نثق لكبيرة فى أن نحضروا بنفس الحماس بعد أن فتحتم

لى قلوبكم وتقبلتم هذه الأفكار تقبلا حسناً . وتتدفق المعانى البينات» .

« لا أخشى بعد ، أن إرادة الله تقودنى إلى الاحتفال بالعيد الحالى للمرة الثالثة .

لو كان الحديث معاداً تزدرون بهذه الوجبة مثلكم مثل الذين يتناولون أصنافاً من الطعام معدة من اليوم السابق؛ ولو انتهجت نهجاً جديداً فإنى أخشى عندما أغوص إلى عمق النظريات ألا أجد نهاية. ومع ذلك فلأن الذى نتطلع إليه فى الاحتفال الحاضر هو الغنى القدير فلا يجب أن نتوانى بل نطلب منه نحن الضعفاء فهماً حياً وكلمة حية فهو يعطى الكلمة للذين يبشرون بسر الديانة الكبير بقوة عظيمة .

« الرب يعطى كلمة لمبشرات بها جند كثير » مز ٦٨ : ١١ .

وبما أن الكلمة لى فسوف أعالج الموضوع الحاضر على نحو ما تضرب الأرض الذهبية بالمعول . وبعد أن استخلص اليسير أتناوله بالبحث وأفصله تفصيلا ليكون منه موضوعاً ذهبياً خطيراً .

هلا تتداولها الألسنة تلك الأحداث التى وقعت عند ميلاد المسيح ؟؟ من الذى يحول دون فيض ينابيع الكلام الغزيرة ؟ ان الحديث عنه أجمل من كل قول . ولو تركت للسانى العنان يسمو نحو ما يتعلق بجوهر الله الكلمة أو كنت أطير وأحلق دفعة واحدة بقدرة معبراً بالألفاظ عما فى خاطرى، فأحسبنى قد ارتفعت عن الأرض بقدر ما يرتفع العصفور الصغير الذى يبدأ فى الطيران من عشه منذ اللحظة الأولى . فهو يستطيع أن يطير فى المناطق القريبة من الأرض ثم يعود إلى أسفل . لكنه ليس فى استطاعته أن يطير فى الأجواء العليا . وهكذا الحال بالنسبة لنا فعلى قدر اقترابنا من العلو نعرف إلى أى حد نحن بعيدون عنه . وانى إذا جعلت عينى على عمق تنازله وتجسده المملوء محبة للبشر لموقن انى لو جاهدت لأهبط دفعة واحدة بروحى إلى عمق ليس له حدود يعترينى الوهن والكلل ، كالسابح فى بحر أو الناظر من أعلى قمم الصخور . ان قوة البصائر لتقصر عن ادراك العمق المنيع ، نعم أنها تقصر عن الخوض فى مناقشة هذه المسائل . وحينما نتزع إلى التأمل فى تنازل الله الكلمة فبعد موجات هائلة من الألفاظ والأفكار نصل إلى ما قاله سليمان الحكيم :

« كل هذا امتحنته بالحكمة قلت اكون حكيماً . أما هى فبعيدة عنى . بعيد ما كان بعيدا والعميق العميق من يجده » جامعة ٧ : ٢٣ – ٢٤ .

أجل، من ذا الذى يستطيع بذهنه أن يجمع بين وجهتى النظر القائمتين دفعة واحدة فيجمع بين الارتفاع والعمق؟ ان الكتاب الإلهى يقول عنه أنه « **فوق كل رياسة وسلطان وقوة وسيادة وكل اسم يسمى ليس فى هذا الدهر فقط بل فى المستقبل أيضاً** » ١ ف ١ : ٢١ .

هو الكائن قبل كل الأشياء الذى به يوجد الكل : وهو الذى نزل إلى العالم .

† † †

ظهور الله الأبدى

نزل إلى الأماكن الدنيا ، فى الأرض باتحاد اقنومه بجسدنا ونفسنا العاقلة [١] .

من لا ينبض قلبه أو لا يأخذه العجب ؛ فى رجفة متعجباً وفى صمت يعطى مجداً لإلهنا . لقد أخضع نفسه لكل هذا التواضع بارادته وهو غير محتاج ، انه غنى وكامل ، تنازل من أجل خلاصنا فتجسد واحتمل فى جسده الآلام التى قبلها لأجلنا حتى الصليب .

يالعجب ! ان من يملك وحده الأبدية ، النور المشع ، شمس البر ، بسببنا نحن الذين بخطيئتنا جلبنا العـــار على جبلتنا الأولى الإلهية ، فسقطنا من مسكنتنا الاول ، أعنى الفردوس المفروش فى الشرق ، ونفينا إلى الغرب فأصبحنا بعيدين تماماً عن النور الإلهى ؛ بسببنا ظهر فى المشرق بعد أن اشترك بطريقة عجيبة فى كياننا ـ اشترك فى بذار ابراهيم ، ونما حسب الجسد من أصل يسى وداود وهكذا ظهر للذين كانوا جالسين فى ظلمات الجهـــل وظل الموت .

(١) فى هذا الجزء وما يليه يوضح لنا القديس الثمار المرجوة من سماع الكلمة التى أشار اليها فى مستهل المطلب . وهو بدوره يقدم لنا تحليلا رائعاً يصل بالكلمة إلى علو لائق بالله على حد قوله . يبين لنا كيف تصل الينا هذه الثمار وكيف تمس كياننا كما يبين أنواعها فى عرض رائع سهل للأخذ .

النبوات عن الظهور

بشر إرميا النبي قبل الوقت بهذا الظهور العجيب الذى يليق جداً بالله قائلا: « **ها ايام تاتى يقوم الرب واقيم لداود غصن بر فيملك ملك وينجح ويجرى حقا وعدلا فى الأرض. فى ايامه يخلص يهوذا ويسكن اسرائيل امنا وهذا هو اسمه الذى يدعونه به الرب برنا** » ار ٢٣ : ٥ – ٦.

ان هذه النبوة تختص بلا نزاع بالمسيح ، هذا ما يقوله كل المشتغلين بالكتاب المقدس ، حتى ولو جزئياً . لانه بعد داود لم يملك أى ملك صديق ، نظراً لأن كل الذين خلفوا داود كانوا مذنبين ، باستثناء حزقيا ويوشيا ، وهما اللذان تنبأ بعدهما إرميا بهذه النبوة . فقبل الكلمات التى ذكرناها ، كان يقول عن يكنيا (كيناهو) الذى صار ملكاً بعد وفاة يوشيا : « **هل هذا الرجل كيناهو وعاء خزف مهان مكسور او اناء ليست فيه مسرة** » ار ٢٢ : ٢٨ .

ومن جهة أخرى فإنه من المؤكد تماما أن كلمات النبوة تتحدر إلى الزمن التالى والزمن المستقبل. ومع ذلك فإن الاسم « غصن بر » لن يعطى بجدارة لأى أحد آخر من الذين تملكوا سوى للمسيح؛ فهو شمس البر الذى جعل أشعة معرفة الله تضيء لنا ؛ كما مارس أيضا العدل والحق على الأرض حينما بسط على كل الأرض نواميسه

ذات العدالة العليا المطلقة ؛ وفى أيامه أيضاً خلص يهوذا وسكن يعقوب فى أمان .

فى الواقع ان فترة انقسام الشعب إلى قسمين اسرائيل ويهوذا منذ زمن الملك سليمان ما تزال حتى النهاية ، فهناك مملكتان منفصلتان . لكن بصفة عامة كل الذين كانوا منفصلين قد خضعوا وأطاعوا على حد سواء بشارة المسيح وملكوته وأخذوا نيراً واحداً . وعلى أى حال فإنه بسبب يهوذا الذى ترجمته « المعترف » وبسبب اسرائيل الذى ترجمته « العقل الذى يرى الله » يطلق « يهوذا الذى خلص » على أولئك الذين فى الوقت الحالى قد اقتربوا من الإنجيل وهم فى منزلة المعترفين ، وندعو « اسرائيل الساكن فى أمان » على أولئك الذين آمنوا وجاوزوا مرحلة التأمل ، فهم بذلك يعرفون الله أو يرونه ، وهم ثابتون بالمعرفة آمنين وكأنهم يسكنون ويستريحون فيما عرفوه .

وهذان الفريقان يؤلفان جسد الكنيسة الوحيد ، وهما موضوعان تحت سلطان المسيح وحده الذى يعلن عنه إرميا النبى أيضاً بجدارة أنه يدعى يوصادق Josédec وهو ما معناه فى الترجمة اليونانية « بر الله » والمسيح هو بر الله الآب وهو أيضاً الحكمة والقدرة. اسمع بولس الرسول الذى يكتب لأهل كورنثوس:

« ومنه أنتم بالمسيح يسوع الذى صار لنا حكمة من الله وبرا وقداسة وفداء » ١ كو ١ : ٣٠.

حينما تنبأ إرميا بهذه النبوة عن يسوع قائلا: « سوف يدعى يهوصادق »، براته، عرف بدقة تامة وبوضوح تام من هو الذى يتنبأ عنه من بين كلماته وكأنه يرى بعينيه ذاتهما أيضاً، فاستنار بظهور ذاك الذى كان حينئذ آتيا وهو الذى نراه الآن وهكذا فى فرحة صرخ قائلا: « انه فى الأنبياء »، وهو يشير إليه كما بالأصبع قائلا: « انه هو الذى كان فى الأنبياء والذى أوحى اليهم والذى جعلهم بطرق مختلفة يعلنون هذه النبوات المتعلقة بشخصه ذاته ».

بخصوص ذلك الظهور، ظهور الله الكلمة الذى تأنس لأجلنا، يقول زكريا النبى أيضا بطريقة إلهية تماما: « **هوذا الرجل الغض اسمه ومن مكانه ينبت ويبنى هيكل الرب** » زك ٦ : ١٢.

يا لعظمة دقة النبـــوة ! من الذى لا يسبح ذلك الذى نطق بوضوح بهذه الكلمات قبل سنين عديدة بواسطة خدامه ذاته الذى فى آخر الأيام حقق الكلمات التى قيلت قبل الوقت؟ « اسمه شرق »[1] يقول النبى فعلا. أنه نور نور الآب[2] . « **كان النور الحقيقى**

(١) النص الفرنسى : Son nom est orient
ومن بيت لحم اشرق للخليقة .
(٢) النص الفرنسى: la lumiére de la lumiére du Pére.

الذى ينير كل انسان اتيا الى العالم » يو ١ : ٩ لذلك دعى باسم لائق.

فإن من خواص النور والشمس أن يثيرا من الأعالى ويسلطا أشعتهما على الكون لإضاءته واشراكه فى الضوء الذى ينبعث منهما. وان شمس البر، النور الذى لا يدنى منه، « **الذى وحده له عدم الموت ساكنا فى نور لا يدنى منه** » ١ تى ٦ : ١٦ أخذ على عاتقه أن يتجسد ويتأنس لأجلنا، أشرق لنا حينما أخذ شكل العبد وتنازل هو نفسه بارادته قد أشرق لنا. وقد تنازل هكذا متواضعاً جداً وأظهر ذاته قليلا قليلا وأنارنا بكل لاهوته.

لذلك حينما بشر زكريا مقدماً بهذا العجب قال، « **هوذا الرجل الغض اسمه ومن مكانه ينبت ويبنى هيكل الرب** » زك ٦ : ١٢.

وقد شرح داود هذه الفكرة بطريقة أخرى حينما تكلم عن هذا الاشراق الذى يحدث فى الدنيا فقال أشرق من المغرب[1]. (فى الظلمة). ويصيح هو أيضاً مع يوحنا المعمدان للذين كان يتعين عليهم أن يصيروا شهوداً لاشراقه: « **اعدوا طريق الرب اصنعوا سبله مستقيمة** » مت ٣ : ٣، مر ١ : ٣، لو ٣ : ٤،

(١) النص الفرنسى حرفياً il s'est leré à l'occident والمقصود بذلك أنه اشرق للذين فى الظلمة ووادى ظلال الموت، جنس البشر الذى حملته الخطية وهبط الى الجحيم ومن المنارة والمذود أشرق للخليقة.

« **قوموا طريق الرب** » يو١:٢٣ فيقول داود : « **أعدوا طريقا للراكب فى القفار باسمه واهتافوا أمامه** » مز ٦٨ : ٤ .

فى الواقع ولو أنه حجب مجده الخاص حسب التدبير الإلهى إذ أشرق فى الظلمة ، إلا أنه مع ذلك الرب . لانه حتى حينما صار انسانا لم يتخل عن كونه رب وإله . وفعلا لو أن المرنم أعلن أن الشمس تشرق فى الظلمة ، فإنها لن تصير نفسها مظلمة ، بل العكس يبين ذلك أن فى الغرب (أو فى الظلام) كان الضوء المشرق . وبنفس الطريقة إذ كانت حالتنا غاربة وكانت سوداء من جراء الخطية محرومة من العمل الإلهى ، فقد جعلها كلمة الله مشرقة حينما بارك عبورنا إلى هذه الحالة الجديدة حيث صرنا نفيض عدلا وطهارة ونتزين بالفضائل الأخرى ، بتجسده الذى به صنعت أعمال النور وكل ما هو خير بين البشر .

إذا أراد ملك أن يذهب إلى مدينة صغيرة غير معروفة وعاجزة تماما عن احتمال مجيئه ، فإنه فى الغالب يجعل نفسه صغيراً ويزيل عظمة كبرياء المظاهر والمجد الذى يحيط به لكى يصير محتملا من هذه المدينة . ولكنه رغم ذلك لا يستطيع إلا أن يدخل كملك متنازلا بصفة عامة عن مظاهر رتبته . هكذا أيضا ابن الله ، كلمة الآب الغير مدرك ، الأبدى أراد أن يأتى فى صورة

بشرية فى هذا العالم وهو عنده على حد تعبير أحد أنبيائه كنقطة يملأه بطريقة إلهية ، « **هوذا الأمم كنقطة من دلو وكغبار الميزان تحسب . هوذا الجزائر يرفعها كدقة** » أش ٤٠ : ١٥ . على قدر ما كان ذلك مستطاعا ، فقد تواضع .

تواضع من مجده الذاتى وجاء إلى الاهانة[1] - فى ذلك فعلا أخلى ذاته وأصبح هكذا ممكنا الوصول إليه - وبأسلوب لامثيل له ، وبطريقة فائقة خاصة تسمو على كل الطرق الأخرى ، دخل إلى عالمنا من باب إلهى ملكى ، يعنى من البتولية ، بميلاده فى الجسد من الروح القدس ومن العذراء والدة الإله .

† † †

(١) النص الفرنسى : Il s'est humilié de sa propre gloire et est Venu à l'humiliation .

الخلاص والتجديد

هذا الميلاد الفائق بدون بذار، الذى به أتى المسيح من سبط يهوذا الذى كانت مريم تنحدر منه بعائلتها، تنبأ عنه يعقوب أول الآباء فى بضع كلمات تحوى كل غنى هذا السر قائلا: « يهوذا شبل، انه من جنسى، يا ابنى، قد صعدت ». انه يدعو المسيح شبلا لأنه يملك الرتبة الملكية ويملك المناعة وفى الجسد يأخذ الجنس من سبط يهوذا. وقد اعترف لأجلنا (نحن الذين ليست لنا أية حرية لدى الله) قائلا: « **فى ذلك الوقت اجاب يسوع وقال احمدك أيها الآب رب السماء والارض لانك اخفيت هذه عن الحكماء والفهماء واعلنتها للاطفال. نعم ايها الآب لان هكذا صارت المسرة امامك** » مت ١١ : ٢٥ - ٢٦.

ان كلمة « يهوذا »، كما قلنا، معناها « المعترف ». فكان يقول، وهو يتأمل فى ذاك الذى اعترف لأجلنا بعينيه اللتين تريان المستقبل قبل الوقت بالرغم من بعد المسافة: « انه من جنسى يا ابنى قد صعدت »، مطلقا جنسه ذاته على القديسة العذراء التى منها أتى المسيح ونما بدون بذار.

أين هم إذاً، عند سماع هذه الكلمات، أنصار حماقة افتيخوس؟ أفلا ينضمون حتى إلى أول البطاركة الذى يقول: أنه من جنسى

يا ابنى قد صعدت؟ لنستهزىء بحماقتهم ونعترف بان جسد المسيح المقدس هو من جوهرنا.

ان مريم فعلا هى من جنسنا، وكذلك يعقوب أبوها الاول، لأننا مكونون من طينة واحدة كما يقول سفر أيوب: « **هانذا حسب قولك عوضا عن الله انا ايضا من الطين تقرصت** » اى ٣٣: ٦.

الذى خلق وكوّن جاء ليصلح ويخلق من جديد، ليست خليقة أخرى، لكن تلك الخليقة التى كانت قد سقطت وخضعت لفساد الخطية، وذلك بواسطة التجسد الإلهى، حينما ألقى بنفسه مثل خميرة فى كل مجموع الجنس البشرى، وصار آدم الثانى، وخلصنا بقيامته وجعلنا نعبر من الحالة الأرضية الزائلة إلى الحياة السمائية الغير فاسدة. أفلا تشعرون انكم تحرمون البشر من الخيرات التى من هذا النوع وتجعلونهم غرباء عن هذا التجسد الذى يعين به من سقطوا؟ أتظنون أنه يمكن أن يصيب جسدنا دنس وهو متحد بالله الكلمة؟ انه لا يوجد سوى شىء واحد يمكن أن يدنس، انه فساد الخطية.

† † †

الخليقة طاهرة

وأين يكون أثر للخطية ، حيث تجسد الله الكلمة بدون استحالة وحيث الأم عذراء حتى بعد الولادة ، وحيث ينزل الروح القدس ؛ لا تعرف رجلا والميل الجسدى مرفوض تماما وغير موجود [1] .

لماذا تتغاضون عن كل هذه النفحات الطاهرة ذات الرائحة الإلهية الزكية وتنصرفون عما هو زكى يسر شذاه الأنفس ، فتتحدرون فى وحل أفكاركم الغير نقية، ولا أقول وحل طبيعتنا، لأنه لو كان لحنا غير طاهر ، لما كان يجب أن يكونه منذ البدء أيضا ذاك الذى صنع كل الأشياء جميلة وجيدة وحسنة جداً. لكن ان كانت هذه الخليقة طاهرة ولم تسبب لحابلها ضرراً أو دنسا ، فكيف لايكون التشكيل الثانى أطهر ؟ وكيف لايكون ، مع عظم الفارق ، هذا التشكيل الذى به أراد الخالق تعالى أن يظهر نفسه فى الجسد لائقا بالله أكثر ؟

لكن احذروا من أن تلقوا بنا بهذا الأسلوب فى روايات المنيكيين الخرافية، فإن من حسب الجسد خارج السر غير طاهر ،

(١) النص الفرنسى : ou la concupiscence est entiérement exclue et absente et fait défaut.

فقد تصور أن له أيضا خالقا آخر ، كما كانوا يفعلون . أنهم فى الواقع يستحقون الرثاء لسبب مزدوج فهم يسرقون ويُسرقون. أما نحن فإننا نؤمن بأن الذى قال بخصوص خرافه : « **السارق لا يأتى الا ليسرق ويذبح ويهلك . واما أنا فقد اتيت لتكون لهم حيوة وليكون لهم افضل** » يو ١٠:١٠ ، يستطيع كذلك أن يجعلكم تستردون خيراتكم ، لأنكم سرقتم وخسرتم ، ويجعلكم تحيون ، لأنكم كنتم فعلا ضحايا عدم الإيمان .

وقول بولس الرسول من ناحيته يتفق مع كلمة يعقوب : « انه من جنسى يا بنى قد صعدت »[1] . فهو يكتب إلى أهل غلاطية بهذه العبارات : « **ولكن لما جاء ملء الزمان ارسل الله ابنه مولوداً من امراة مولوداً تحت الناموس ليفتدى الذين تحت الناموس لننال التبنى** » غل ٤ : ٤ – ٥ .

† † †

(١) النص الفرنسى : c'est de ma race, mon fils, que tu es monté .

الله رفع المرأة

هذه الكلمة « من المرأة » تبين أن عمانوئيل ولد فى الجسد من جوهر العذراء . لم يقل « بامرأة » ، حتى لا يعطى فرصة لذوى الأفكار الرديئة أن يسموا ميلاده عبوراً بطريقة رمزية ويؤكدوا أنه عبر كما فى قناة ومثل البرق . كذلك تفهم أنه كان هناك حبـــل تام ، لكى نبين أن التجسد حقيق وليس وهما .

« وبينما هما هناك تمت ايامها لتلد » لو ٢ : ٦ .

وانى عندما أتأمل بعمق أكثر فى الكتب المقدسة ، الاحظ سراً آخر أعظم . فآدم لم يكن قد خدعه الشيطان ، لكن المرأة ، بعد أن خدعت ، كانت هى الأولى فى التعدى ؛ فان الله الكلمة الذى أراد أن يشفى هذا التعدى ، قد رفع المرأة إلى كرامة أعظم . لأنه حينما يشفى الله أو يصحح ، فإنه لا يحضر للسريض الشىء الأساسى فقط ، لكنه يمنحه علاوة على ذلك الغنى الذى لم يكن له . هذا ما صنعه أيضا لاجلنا ، لم يخلصنا بقيامته من حكم الموت ومن الفساد فحسب ، بل قادنا أيضا إلى ملكوت السموات بدلا من الفردوس وجعلنا أولاداً وورثة لله بدلا من عبيد .

ما هى إذاً هذه الكرامة الاعظم التى حسبت المرأة مستحقة

لها ؟ أقول ذلك بوضوح . عندما يعطى بولس الرسول للرجل السلطة والمكان الأول ويخص المرأة بالمرتبة التالية ويقول انه يجب أن تكون المرأة متواضعة ، يقول : **« لان الرجل ليس من المرأة ، بل المرأة من الرجل » ١ كو ١١ : ٨ .**

لكنه يحق أن يقال عنا اننا وجدنا بالمرأة وليس من المرأة ، لأنه بالنسبة لنا فان الزرع يسبق ولا سيما اننا به نتكوّن . أما المسيح الذى حبل به بدون بذار ، فبالعكس قد وجد ليس بالمرأة بل من المرأة وقد رفعها إلى رتبة رفيعة .

فى بدء الخليقة كانت المرأة من آدم ثم فى التجسد كان المسيح آدم الثانى ، من المرأة . وهذه تفوق تلك لأن التكوين الثانى إلهيا أكثر من الأول .

فيا اتكن أيتها النساء حسبتن مستحقات لمثل هذه الكرامة بواسطة العذراء والدة الإله ، فاعطين إذاً لأزواجكن نصائح جيدة تقودهم إلى الحياة الأبدية . إذا وجدتن أنهم يتراخون فى القيام بواجبهم وفى اعلامكن ، فانصتن اليهم باحترام . وإذا كنتن تجدن أنهم على النقيض موثقون برغبات العالم وهمومه وانهم يختنقون بفكرة جمع الذهب ، وانهم يمضون لياليهم دون أن يناموا ، ويتساءلون بقلق من هو المدين الذى سوف يزجون به فى السجن ،

ومن الذى سوف يحرونه أمام المحكمة ، وعلى بيت أى رجل ينقضون بحجة أنه مثقل بالدين وغارق فى الهموم، أو من يعرونه من الثوب الضرورى ، فلا تقضين معهم وقتـــا مليئا بالبؤس واللعنة ، ولا تنشطن بكلماتكن كما بالهواء شعلة محبة المال. لكن فى فكر يستلهم محبة الله،وبشجاعة اسمعتهم كلمات حكيمة واطفئن فيهم الرغبة فى التعلق بوفرة الأموال وحدها .

المرأة واصلاح الأسرة

يتبسط القديس فى الحديث مصوراً ناحيـــة اجتماعية من نواحى عصره نجد لها مثيلا فى ظروف أخرى متعددة ، فيقول مبينا حوار الزوجة الفاضلة اللبقة .

لتقل كل واحدة منكن لزوجها : « قد أعطانا الله بركة كافية لنا ونحن نتمتع بالسلام والسعادة من فوق؛ ومن كل ناحية تتدفق علينا الأموال . واننا نفرح فعلا بأعمالك التى باركها معطى الخيرات باضافته خيراته ذاتها » . ومتى رأيتن أنه سره هذا الضرب من الحديث واستعذبه وأظهر نفسه جـواداً وتخلى عن تشدده وقسوته فزيدى بعد ذلك : « ياصديق أظهر إذاً مشاعر المحبة للبؤساء ؛ لا تطالب بهذه الدقة سداد الديون ؛ اقبل جزءاً،

وأخرّ دفع الباقى قليلا أو حتى اتركه ، إذا كانوا بؤساء للغاية . نحن فى السرور مقيمون ، أما هم ففى الدموع : نحن نشبع ونتمتع بالفائض ، أما هم فليس لهم سوى الخبز . وربما كانوا يصيبون الخبز بمقدار أو لايفى بالحاجه .

من ناحيتى سأحضر فى نفس الوقت بعض ما عندى أيضاً مع اظهار كرمك ولن أحيرك بهموم هذه السنة : « انى أتنازل عن ذلك الثوب الذى كنت مزمعاً أن تصنعه لى أو هذه الحلى الذهبية أو هذا المبلغ لتلك الزينة الاخرى ؛ لن تشترى لى شيئاً مطلقاً ؛ ان الملابس الداخلية تكفينى ؛ ان الرحمة نحو الفقراء تكون لى ثوباً مشرفاً جداً أكثر كثيراً من كل الثياب الغالية . حسبى ذلك الجمال الداخلى الذى لايذبل وما برح مقبولا لدى الله، ليس ذلك الخارجى الذى يذبل ويسقط مثل الزهـــرة . بذلك أكوّن لأولادى كنزاً ثمينا لايستطيع أحد أن يأخذه » .

فحينما يسمعك زوجك تتحاجين هكذا ، فانه حتى إذا كان مثل الحيوان المتوحش فانه خليق أن يغير نزعاته ويحسن لمدينيه. لأنه لايوجد إنسان حتى ولو كانت له كل الفصاحة وكل مهارة أهل البلاغة ، يستطيع هكذا أن يقنع الرجال مثل النساء الشريفات الطاهرات .

لذلك فاذا كنتن لا تفعلن الخير حينما يكون فى استطاعتكن أن تفعلنه، فاسمعن الكتاب المقدس الذى يحسب لكن هذه الخطية: **«فمن يعرف ان يعمل حسنا ولا يعمل فذلك خطية له» يع ٤: ١٧.**

كذلك حينما ترون أزواجكن يدفعونكن نحو الملذات ونحو الطرق المسلوكة التى تؤدى إلى الانغماس فى الملذات إلى «دفنيه» Daphné[1]، ونحو الحياة الرخوة المسرفة التى به. فاجعلن نصب أعينكن مجد والدة الإله وكتاب التعاليم المقدسة، وبعد أن تستخلصى منه روحاً طاهراً، اجعلنه يسكن فيكن. ادفعن أزواجكن نحو الخير وأعطين لهم درساً قائلات: «لتكرم حياتنا، يازوجى، بالنزاهة والطهارة؛ وبحياة بيتنا وبالسلوك الطاهر تصنع من الزواج سراً، ومن الفراش موضعاً طاهراً؛ لا تكن مسائل العلاقة الجسدية موضوعاً للبحث عن الرغبات الشريرة، بل مسكناً لاينطق به معطى من الله من أجل انجاب الأولاد».

بهذه الكلمات تضعن حداً لتصرفات أزواجكن العنيفة البعيدة عن الفهم، فضلا عن ذلك فان الملائكة سوف يتهللون من أجلكن ويفرحون بخصوصكن وكذلك العذراء القديسة الطوباوية وكل جمع القديسين، وسوف يكللكن المسيح بطريقة غير منظورة،

(١) وهو شارع من شوارع انطاكية كان مشهوراً كمكان للهو.

وهو الذى يحارب من أجل الفضيلة، الذى كان من المرأة وليس بالمرأة، الذى بالمرأة وضع فيكن هذا الثبات وهذه الشجاعة.

أما فيما يختص بتربية الأولاد، لاتتخاذلن إرضاء لأزواجكن حينما يصحبونهم إلى التمثيليات وإلى مايفسد. اجتهدن أن تقدمنهم إلى الكنيسة. فاومن اللهو الضار الذى لايليق بخصال القديسين المتألقة، مما يؤثر فيهم، وتعجلنهم قائلات بطريقة حازمة فى نفس الوقت: «لا يستطيع من ينصرف إلى التمثيليات وأمثالها خارج الناموس أن يحتفل بأعياد الله كما يجب». فاذا كانوا يتربون فى هذه التقاليد وهذه العادات حينما يكبرون ويبلغون سن التضوج ليس من ناحية العمر فحسب، لكن أيضاً من حيث الفضيلة، يتمثلون بالقائل: **«دعوا الأولاد ياتون الى ولا تمنعوهم لان لمثل هؤلاء ملكوت السموات» مت ١٩: ١٤.** فإنهم يصيرون لكن فى شيخوختكن سنداً وتعزية فى كل ضيق، لأنهم على بينة من الأقوال الأخرى: **«اكرم اباك وامك كما اوصاك الرب الهك لكى تطول ايامك ولكى يكون لك خير على الارض التى يعطيك الرب الهك» تث ٥: ١٦.**

† † †

ماذا أوحى الحديث عن الميلاد

الى القديس ساويرس ؟

ترى انى لم أقل باطلا فى مستهل هذا المقال ، اننا لو اتخذنا حبة صغيرة من منجم الحكمة ثم أعملنا فيها الفكر ، لكونا منها موضوعاً كبيراً : وها نحن بعد أن توسعنا كثيراً لم نجد نقطة واحدة من هذه الكلمات أو من هذه المعانى كما يقول أيوب :

« ها هذه أطراف طرقه وما اخفض الكلام الذى نسمعه منه . واما رعد جبروته فمن يفهم » اى ٢٦ : ١٤ .

تريدون إذاً أن نجمل هذا الحديث ممتازاً أكثر وأن نطعمه بمختلف الآراء العميقة كما نطعم بالأحجار الكريمة . ان النهار يتركنا ضرورة ونحن يجب أن نضبط طول المقال حسب الوقت ، لأننا ملزمون أن نعترف بالزمن فى كل شىء . ومع ذلك فلكى لا نترك هذا الموضوع خالياً من كل زينة ، فسوف نزينه بحل لمسألة واحدة .

بما أن العذراء والدة الإله هى بعائلتها من نسل سبط يهوذا[1]

---

(١) « فانه واضح أن ربنا قد طلع من سبط يهوذا الذى لم يتكلم عنه موسى شيئا من جهة الكهنوت » عب ٧ : ١٤ .

وداود ، فكيف كان جبرائيل الملاك يقول لها : « **وهوذا اليصابات نسيبتك هى ايضا حبل » لو ١ : ٣٦** . وهذه الأخيرة كانت زوجة زكريا الكاهن الذى ينتمى لسبط اللاويين . فى الواقع لم يكن يوافق الناموس أن يتخذ من ينتمى إلى سبط معين زوجة له من سبط آخر ؛ لأن الرب يقول على لسان موسى فى سفر العدد :

نسب العذراء

« فلا يتحول نصيب لبنى اسرائيل من سبط الى سبط بل يلازم بنو اسرائيل كل واحد نصيب سبط ابائه . وكل بنت ورثت نصيبا من اسباط بنى اسرائيل تكون امرأة لواحد من عشيرة سبط ابيها لكى يرث بنو اسرائيل كل واحد نصيب ابائه . فلا يتحول نصيب من سبط الى سبط اخر بل يلازم اسباط بنى اسرائيل كل واحد نصيبه » عدد ٣٦ : ٧ ـ ٩ .

ولهذا السبب حينما كتبت سلسلة نسب يوسف أدرجت الأنساب حسب الرجال وليس حسب النساء ، ولابد أن نسب القديسة مريم العذراء قد تبين فى نفس الوقت ، فهى تنتمى بحسب الناموس لنفس السبط الذى ينتمى إليه خطيبها . كيف إذاً تكون القديسة العذراء نسيبة اليصابات ؟

زعم البعض أن ذلك لأنهما كانتا اسرائيليتان وكانتا أصلا من نفس الشعب ، لذلك دعاهما الملاك جبرائيل نسيبتين . وإنما نسمي القريب الذى ينتمى إلى نفس الشعب نسيباً لكى نميزه فندعو ذلك الذى ينتمى إلى نفس الشعب نسيباً . وذلك استناداً إلى قول بولس الرسول فى الرسالة إلى أهل رومية ، لما كان على وشك الكلام عن الذين آمنوا بين الأمم الاخرى وأيضاً بين اليهود ، فإنه يسمى اليهود انسباءه قائلا : « فإنى كنت أود لو أكون أنا نفسى محروماً من المسيح لأجل اخوتى انسبائى حسب الجسد الذين هم اسرائيليون ولهم التبنى والمجد والعهود والاشتراع والعبادة والمواعيد » رو ٩ : ٣ - ٤ .

بيد أننا لا نجد فى أى مكان شيئاً مماثلا بخصوص اليصابات ومريم : ولما كانت نساء كثيرات ينتمين إلى نفس الشعب ، فلم يقل الملاك هذه الكلمة للعذراء مجرد علامة : « هوذا اليصابات نسيبتك » . فإنه نظراً لأنه كان خادم الاعلانات الإلهية والأوامر الروحانية ، لم ينطق بهذه الكلمة بصفة عامة . وكما كان الملاك الذى ظهر ليوسف فى الحلم يقول له : « **يا يوسف ابن داود** » مت ١ : ٢٠ . لكى يذكره بالوعد الذى وعد الله به أن يكون

المسيح من نسل داود ؛ هكذا الحال أيضاً هنا ، فعبارة « هوذا اليصابات نسيبتك » هنا مملوءة بسر[1] يليق بالله . وحسب رأيى إن هذا لم يفت العذراء أيضاً لأنها كانت مملوءة من الروح القدس لذلك جرت فى الحال خاضعة بفرح إلى اليصابات .

† † †

(١) سنذكره فى الفقرة التالية .

المسيح الملك والكاهن الاعظم

حيث أن المسيح ملك الملوك ، **المبارك العزيز الوحيد ملك الملوك ورب الأرباب ١ تى ٦ : ١٥** . هو الله ورب الكون ، وحيث أنه علاوة على ذلك كان مدعواً كاهناً أعظم بعد التأنس، إذ أنه قدم ذاته ذبيحة وقرباناً لكى يطهر خطية العالم ، ولانه هو نفسه يؤدى عنا اعترافنا نحوه ونحو الآب : يقول بولس الرسول : « **من ثم أيها الاخوة القديسون شركاء الدعوة السماوية لاحظوا رسول اعترافنا ورئيس كهنته المسيح يسوع» عب ٣ : ١.** فلذلك كان قرار السماء أن يكون اجتماع بين سبط يهوذا الملكى وسبط لاوى الكهنوتى ، حتى يكون المسيح ، الملك والكاهن الاعظم ، من نسل هذين السبطين بعائلته فى الجسد .

وفى الخروج : « **واخذ هرون اليشابع بنت عميناداب اخت نحشون زوجة له . فولدت له ناداب وابيهو والعازار وايثامار** » خر ٦ : ٢٣ . قبل أن تخرج الوصية التى تنهى عن اتخاذ زوجة من سبط آخر، اتخذ هارون رئيس الكهنة حسب الناموس زوجة من سبط يهوذا : اليشابع (اليصابات) بنت عميناداب ، وكان عميناداب من نسل يهوذا بعائلته . وحتى لا يفكر أحد أنه

عميناداب آخر، فإن الكتاب المقدس يطرح جانب الخطأ فيبين بوضوح قائلا : بنت عميناداب أخت نحشون » .

أنظروا تدبير الروح القدس وسمو الحكمة والتدبير كيف جعل امرأة زكريا ، والدة المعمدان ، نسيبة مريم والدة الإله، اليصابات : الأمر الذى يعود بنا إلى الوراء حتى اليصابات (اليشابع) تلك التى تزوجها هارون والتى بها حدث اتحاد السبطين؛ والذى يعلن لنا بوضوح أنه باليصابات هذه يكون النسب مع مريم العذراء .

لايقل أحد أن الاسر لدى البابليين قد ألقى بلبلة بين الشعب اليهودى ، حتى أنه منذ ذلك الوقت لم يكن هناك تمييز بين الأجناس وكان كل العائدين من بابل يجدون مشقة كبيرة فى جمع أولاد هارون واللاويين الباقين الذين كانوا يهتمون بعادات أجدادهم ولم يشير المؤرخ إلى السبط الذى ينتمى إليه العائدون فقط ولكن أيضا إلى البلدان والقرى .

وقد تكلم لوقا البشير أيضا عن زكريا بهذه العبارات التى تبين لنا دقته : « **كان فى ايام هيرودس ملك اليهودية كاهن اسمه زكريا من فرقة ابيا وامراته من بنات هرون واسمها اليصابات» لو ١ : ٥** .

ان ربنا يسوع المسيح الذى قال عن نفسه: « **لانه هكذا يليق بنا ان نكمل كل بر** » مت ٣ : ١٥ . لم يدع شيئا مما يختص بالدقة يسقط . لكنه بعد أن لاحظ كل الأشياء ، اعتبرها وأتمها ، لأن المسيح هو بداية ونهاية الناموس والأنبياء وهو إله العهد القديم والجديد ، وقد أشرق لأجلنا أيضا فى الجسد فى آخر الايام . له المجد والقدرة مع الآب والروح القدس إلى أبد الدهور آمين .

† † †

أودع بدار الكتب تحت رقم ٥٢٥١ لسنة ١٩٦٩